التأثير الروحي للغة العربية (الدعاء نموذجا)

علي إبراهيم البراهيم

مدخل:

إن الإنسان بطبيعته كائن لغوي ينفعل ويؤثر ويتأثر باللغة التي ميّزته عن سائر المخلوقات، وقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن للغة سلطة قوية على الإنسان متحدثا ومستمعا، فباللغة يُكوّن الإنسان ذاته، ويكون تحت سيطرة مطالبها وتأثيرها، فها هو الفيلسوف الفرنسي (ميشيل فوكو) يقول: " يعتقد البشر أن كلامهم في خدمتهم لكنهم لا يدركون أنهم يخضعون أنفسهم لمطالبه "١، بل إن الإنسان من دون اللغة لا يستطيع أن يدرك كينونيته، بمعنى أن الكينونة لا تفصح عن ذاتها إلا باللغة٢، ولا ريب أن الروح تتفاعل باللغة وتتصل بحبلها فتشتد قواها إذا شددنا حبل اللغة، وترتخي وتخور قواها إذا أرخينا حبل اللغة وتركناه مرميا. بل إن الروح هي الأصل الذي منه تولد اللغة وتترعرع فتنمو وتتفرع وتورق، وبما أن الإنسان في حقيقته هو الروح، والروح تحتضن اللغة فلا يمكن عندئذ أن تنفصل اللغة عن الروح والعكس.

إن اللغة الأدبية الأصيلة هي التي تحقق للإنسان قيمته الحقيقية؛إذ إنها تُسهم في بناء الإنسان المكرم بروحه، وبها يمتاز عن سائر أنشطته اللغوية الأخرى التي لا تملك القدرة على التعبير عن أشواقه ومشاعره التي تختزنها الروح ٣؛ولذلك يكون لازما على المتكلم الأدبي الرفيع أن يكون عالما بخطر الروح ليؤثر في كيان الإنسان، ويتحكم في مساراته وأنشطته في مختلف مجالات الحياة.

إن القرآن الكريم وهو كلام خالق الروح ومدبر أمرها أشار بشكل واضح إلى دور اللغة وتأثير الكلام على الروح، ففي قوله تعالى: "وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً" (الإسراء٨٢)، بيان لأثر القرآن الروحي، فالقرآن لغة رفيعة في أعلى مستويات البلاغة وفوق كلام البشر، وحين يكون شفاء فإن سبيله في ذلك هي اللغة، فهو شفاء بلغته يغسل ويطهر أدران الروح إذا تلوثت، وليس الشفاء المادي وذلك بقرينة قوله تعالى:" ولا يزيد الظالمين إلا خسارا"؛لأن الظالم مريض روحيا ونفسيا.

وفي قوله تعالى: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَة طَيِّبَة أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء×تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ× وَمَثَلُ كَلِمَة خَبِيثَة كَشَجَرَة خَبِيثَة اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَالَهَا مِن قَرَارٍ" (إبراهيم٢٤ــــ٢٦)، نجد أن الله سبحانه يصور لنا الكلمة الطيبة –وهي لغة وتتعدد مصاديقها والتي منها الكلام الحسن الجميل المؤثر في النفوس- يصور لنا ذلك بالشجرة الطيبة التي لها أصل ضارب بجذوره في الأرض وفروعها تتطاول في السماء. إن الشجرة بحد ذاتها ترتاح النفس لمرآها ومنظرها، وهي ليست أي شجرة بل شجرة طيبة مثمرة وفيها من المنافع الجمّة كما قال المفسرون إذ أشاروا إلى أن الشجرة المعنية في هذا المثل هي النخلة٤، التي تعطي بركاتها على الدوام وفي كل حين، والتعبير بالفعل (تؤتي) بهذه الصيغة فيه إشارة إلى امتداد واستمرار عطائها بالخير.

إذا تصورنا كل هذه المعاني عرفنا أثر الكلمة الطيبة في روح الإنسان المتلقي، وعلى النقيض من ذلك يصوّر لنا القرآن الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة التي لا أصل لها ولا قرار ولا ثمار بل على العكس من ذلك إنها (اجتثت من فوق الأرض) وهذا يعني أن أثر الكلمة الخبيثة تجرح مشاعر الإنسان وتهدم روحه.

وفي قوله تعالى حين أمر نبيه الله موسى (ع) وأخاه هارون أن يذهبا إلى فرعون:"اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى× فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى "(طه٤٣- ٤٤)، يتجلى الأثر الروحي للغة في أبهى صوره إذ يفعل القول اللين في النفوس فعله الخطير، فمع طغيان فرعون وجبروته وقسوته يضع الله سبيلا لنبيه موسى(ع) مع أخيه هارون يُحتمل فيه التأثير وهو القول اللين اللطيف؛ إذ قد يكون سببا لتذكره فيعود إلى طريق الحق

أو يخشى الله تعالى.

وفي قوله تعالى عن الإحسان للوالدين:" فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً" (الإسراء٢٣)، نجد أن كلمة (أف) التي تدل على التضجر والتبرم لها دلالتها السلبية على روح الإنسان؛لأن لها علاقة بالمشاعر والعواطف مع حقارتها وقلة شأنها؛ ولذا فإن الله سبحانه قد أمر الإنسان بما يحقق عكس ذلك في الأثر النفسي وهو القول الكريم بمعنى ممارسة اللغة الراقية التي تقطر حنانا وعطفا ورقة وجمالا لتأنس بها روح الوالدين.

اللغة جسد وروح:

لقد عبر كثير من اللغويين والبلاغيين قديما وحديثا عن اللفظ بالجسد الذي يتلبسه المعنى وقصدوا بالروح المعنى، فالجرجاني مثلا جعل اللغة لفظا ومعنى ومعنى المعنى، وذلك حين تُجعل الألفاظ زينة للمعاني وحلية لها كالوشي المحبّر واللباس الفاخر والكسوة الرائعة ٥ يكون وراءها معنى المعنى، وهو ما نصل إليه بغير اللفظ في أساليب الكتابة والتعريض والتشبيه والاستعارة، أما الروح التي نريدها هنا للغة هي التي تكون فيها العلامة أو اللفظة ليست مجرد حامل للمعنى بل هي التي تُسهم بشكل فعّال في تشكيل روح المعنى المؤثر في النفوس٦، ونقصد بالروح هنا هي التي تجعلنا نفكر ونتأمل ونسمو بعقولنا وأحاسيسنا، وإلى هذا أشار العالم (فندريس) –بحسب فهمي- إلى هذا المعنى في قوله:" نحن نفكر بجمل"٧، وبما أن التفكير هو صياغة للروح واللغة هي أداة التفكير فتكون اللغة حينئذ هي التي تشكل معالم الروح، وذلك بما ينعكس عليها من ألفاظ لها ذلك الأثر البالغ كما هو في نص القرآن الذي جعل اللغة وسيلته في التأثير وبناء الروح، وفي نصوص الأدب الرفيع كذلك، ويكون في نص الدعاء أيضا – الذي هو حديث بين العبد وربه- فقد توسل باللغة لتكون هي الشفيع الأكبر للولوج إلى الروح وملء فراغها، فبقدر ما تكون الكلمة منفتحة على إمكاناتها في النظام اللغوي يكون تحقيقها للأثر مندمجة في روح المتحدث ومنعكسة على روح المتلقي فترسخ في الذاكرة، وتهب اللفظة مضمونا رفيعا يداعب الروح، وهذا الأثر والدور لا يتحقق إلا إذا كانت الكلمة في موضعها الصحيح المحدد٨.

وهنا نطرح سؤالا في محله: هل ما نستوحيه ونتفاعل معه من المعاني التي تحملها الألفاظ هي مجرد معانٍ، أم لها وراء المعنى روح تلقي بظلالها على منشئ النص والمتلقي له ؟

لنتأمل في هذه المقطوعة من مناجاة علي بن الحسين زين العابدين (رض) إذ يقول: " إلهي ألبستني الخطايا ثوب مذلتي وجلّلني التباعد منك لباس مسكنتي... إلهي ظلل على ذنوبي غمام رحمتك، وأرسل على عيوبي سحاب رأفتك "٩ إنّ المتفوه بهذه الألفاظ في الدعاء يشعر بالسكينة والارتياح فينتج أثر يلامس الروح والمشاعر، فمن أين جاء هذا التأثير ؟!

إن المعنى الذي حملته هذه الألفاظ في الدعاء بسيط واضح ليس فيه غموض، فالخطايا والذنوب تجعل الإنسان في موقع الذليل، والبعد عن الله سبحانه يُلبس الإنسان المسكنة؛ولذا فإن الداعي يطلب من الله الرحمة بسبب ذنوبه، والرأفة بسبب عيوبه، ولكن هذه الصياغة بالألفاظ التي اختارها الداعي وجمال التصوير فيها جعل منها روحا تنبض بالحياة والأمل، فهنا إيقاظ للقلب والعقل يتعلق بالروح مولّدا شعورا عظيما وعميقا بالخضوع والمسكنة والذلة لله سبحانه، فحين يُقر الداعي بأن الخطايا والذنوب ألبسته ثوبا من المذلة والحقارة والمهانة، ففي ذلك شعور بالفقر والحاجة إلى الله؛لأنه الملجأ الوحيد الذي يستطيع أن يبدل ذلك الثوب بثوب آخر من العزة والكرامة، فالمعلوم أن الثوب يغطي معظم أجزاء بدن الإنسان ويكون ملاصقا لبدنه يتحرك معه كيفما تحرك البدن، وهذه الملازمة تجعل من الإنسان منغمسا في الذلة مع نفسه؛إذ قد لا يظهر كذلك أمام الناس، فهناك من هو متورط في وحل الذنوب والمعاصي ولا يعرف عنه الآخرون ذلك، ولكنه في نفسه حين يلتفت إلى تقصيره يخاطب ربه بالحقيقة التي يعلمها سبحانه عنه وهي الذلة؛ ولذا قال: (مذلتي) أي الذلة التي أدركها أنا دون غيري. وحين قال: (وجللني) التي قابل بها (ألبستني) نستشعر معنى آخر يضرب في عمق الروح وهو التغطية الشاملة التي عمّت جميع أجزائه، وهنا فرق يحتاج إلى تأمل؛ إذ قال مع ثوب المذلة (ألبستني)؛لأن الثوب لا يغطي كل أجزاء البدن، أما مع لباس المسكنة فقال (جلّلني) بمعنى غطّاني بشكل كامل؛لأن المسكنة هي الضعف والتخاذل وقلة الحركة في النفس والبدن، وهذا شامل لكيان الإنسان كله فكانت اللفظة (جلّلني) أوقع في النفس وأكثر تأثيرا في الروح. وهنا يأتي اختيار الألفاظ التي تلامس شغاف القلب والروح بصفات أصواتها التي تتناسب

والحالة التي يكون فيها الداعي المنقطع إلى الله تعالى، فالسين في (ألبستني) والخاء والطاء في (الخطايا) أصوات احتكاكية مهموسة١٠، ماعدا الطاء فهو انفجاري مفخم مع كونه مهموسا، وصفة الهمس مما تلامس الروح والمشاعر؛ولأن في اللباس احتكاك بالبدن كانت السين في دلالتها الروحية ذات أثر بالغ. وكذلك كلمة (الخطايا) تحتك بها روح الإنسان؛ إذ هو في صراع دائم مع نفسه؛ولأن في الخطيئة والذنب تعديا وتجاوزا وتجرؤا على الله تعالى جاءت (الطاء) في الكلمة بصوتها الانفجاري المفخم ليتناسب مع وقع الخطيئة والذنب على النفس.

وفي جملة (جلّلني التباعد) نقف على الجيم في (جلّلني) والعين في (التباعد) فنجدهما صوتين مجهورين فيهما من الوضوح والظهور والجهر ما يترك أثرا روحيا في المنشئ والمتلقي؛إذ إن (التباعد) في هذه الصيغة التي توحي بالقيام بالفعل عن قصد وعمد وتكلّف (تفاعُل) فيها من التجاهر بالفعل وعدم الخفاء، فكانت (العين) حرف ارتكاز في هذا المعنى فصار التباعد يُجلّل الإنسان ويغطيه، ومع أن في التغطية سترا إلا أن في العمل نفسه جهرا، وهو التجرؤ على الله سبحانه. هكذا نجد كيف أن الألفاظ لها روح تُلقي بظلالها على المنشئ للنص وعلى المتلقي له.

كيف تؤثر اللغة العربية على روح الإنسان ؟:

أنماط وسلوكيات مختلفة منها:

١- التدبر:

التدبر في اللغة هو النظر والتأمل في عواقب الأمور، فيقال:تدبّر الأمر، وهو من الدَّبْر، وهو من كل شيء خلفه ١١، ومن هنا تتسع الدلالة فيكون التدبر في الكلام هو النظر فيما وراء اللفظ الذي هو الجسد، والتأمل فيه، فبقدر ما يكون ذلك النسيج من الفصاحة والبلاغة وحسن الصياغة يكون التأثير في الروح، وهنا لنا وقفة مع العابد الزاهد الفضيل بن عياض الذي انقلبت حياته رأسا على عقب في الحادثة المشهورة التي ترتبط بالآية الكريمة:" أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ" (الحديد١٦)، وذلك حين كان لاهيا قاطعا للطريق، وقد عشق جارية وهام قلبه بها، فأراد أن يتسلق الجدران ليصل إليها وإذ به يسمع تاليا للقرآن يتلو هذه الآية فكأنما نزلت عليه صاعقة من السماء وقعت في قلبه فقال: بلى يا رب قد آن، فرجع فآواه الليل إلى خربة، وإذا فيها سابلة (أي المارون في الطريق) فسمعهم يتحدثون عن سطوة الفضيل وخوفهم منه، فأثر ذلك في نفسه... (إلخ).

حين نتأمل هذه الحادثة نُقر - بلا شك ولا ريب –أن رحمة من الله أدركت ذلك الإنسان فنبهته من غفلته، ولكن هذه الرحمة التي أدركته كانت بسبب آية من القرآن وقف عندها فتعلقت بها روحه، والقرآن الكريم توسل باللغة والبلاغة في التأثير.

إنّ لصياغة ألفاظ القرآن وبلاغته أثرا في قلب كيان ذلك الرجل؛إذ إن مجيء الآية بأسلوب الاستفهام الإنكاري التوبيخي المبتدئ بالنفي كان له وقعه وأثره في الروح، ثم إن الاستفهام موجه للذين آمنوا، والرجل كان من المؤمنين (والإيمان هنا المقصود به الإقرار بالله تعالى وبكلمة التوحيد) لا الإيمان الحقيقي المتجذر بالنفوس وإلا لما كان الأسلوب التوبيخي التقريعي، وهذا ما جعل الفضيل يهتز لهذا الكلام إذ أدرك في نفسه بأنه لا يكون مؤمنا ولم تتحقق الخشية من الله في قلبه.

ثم إن التعبير بالفعل (تخشع) يعطي من الدلالات ما لا يعطيه فعل آخر بمعناه في هذا الموضع، ففي الفعل (خشع) معنى الخضوع والذل والخوف والانكسار والانخفاض والغض والكفّ عن الشيء والاستكانة والركوع والميل، وهذا ما نصت عليه معاجم اللغة١٢، وهذه المعاني كلها أسندت إلى القلب وليس إلى شيء آخر؛لأنه يمكن استعمال هذا الفعل مع أسماء أخرى كالبصر والبدن والجوارح، ولكن القرآن قال: (تخشع قلوبهم) ليُلفت إلى أن القلب هو مركز حياة الإنسان ونبض روحه. وحين قالت الآية:(لذكر الله) فالإشارة قد تكون للقرآن نفسه، أو بمعنى حضور الله سبحانه في القلب وتذكره فيرتدع الإنسان عن فعل الذنب والمعصية.

إن ذلك التحول الروحي النفسي البالغ الذي ظهر على الفضيل كان سببه تلك البلاغة الرفيعة والصياغة اللطيفة في الآية ففعلت فعلتها في روحه وغيّرت مساره.

٢- البلاغة والبيان:

إن اللغة لَتأخذ أثرها في النفوس حتى لو كانت تلك النفوس معاندة مكابرة مدبرة عن الحق، ولكنها تمتلك بصيرة لغوية بلاغية تنفذ من خلالها تلك الروح إلى عظمة تلك اللغة وبيانها، وإلا ما الذي جعل الوليد بن المغيرة يصف القرآن - حين كان يسمعه متخفيا هو وبعض رجالات قريش –بذاك الوصف المعروف:" والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة،

وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلى، وإنه ليُحطم ما تحته..." وهنا يحق لنا أن نسأل: ما الذي دعا الوليد إلى أن يقول هذا القول وفي كل مفصل من مفاصله أسلوب توكيد ؟!

إنه شيء واحد لا غير بالنسبة لهذا الرجل، إنها اللغة الراقية والفصاحة الجاذبة والبلاغة الرفيعة التي يدركها. إن كلمته في وصف القرآن بـ (حلاوة) تدل على ملامسة الروح والأثر النفسي، وفي قوله: (وإن عليه لطلاوة) تأكيدا على الحسن والرونق والسحر الذي أخذ مأخذه في نفس المتحدث وهذه معان لكلمة (طلاوة)، وتعبيره عن القرآن بأنه مثمر في أعلاه ومعذق في أسفله فيه دلالة على الانبهار الروحي؛ إذ إن النفس لترتاح وتأنس بالشجرة المثمرة المعذقة.

إنّ الذي جذب الوليد هو لغة القرآن فأجبرته على الانصياع لها والتأثر بها نفسيا، وإن لم يظهر ذلك الأثر في السلوك الخارجي على المتلقي لكنه إقرار منه بالأثر الروحي القوي للقرآن الكريم.

٣- تعريف الأدب:

عندما عرّف علماء اللغة والبلاغة الأدب قالوا: إنه الكلام البليغ الذي يؤثر في النفوس سواء أكان شعرا أم نثرا. وفي هذا التعريف حرصوا أشد الحرص على التأثير في النفوس، بمعنى أن الكلام لا يكون بليغا إن لم يترك أثره في نفس منشئه ومتلقيه، وهذا إقرار منهم بالأثر الروحي للغة، فالبيان هو اسم جامع لكل شيء كشف قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته؛لأنه مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والمتلقي كما عبّر الجاحظ حين عرّف البيان١٣. وقول الجاحظ: (كشف قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير) واضح بيّن في التأثير الروحي للأدب الرفيع؛إذ إنه يُقر بأن المعنى قد يستتر وراء قناع، وحين ينكشف يظهر الأثر النفسي، ويؤكد ذلك في قوله: (وهتك الحجاب دون الضمير)؛إذ إن الضمير هنا يشير به إلى النفس أو الروح.

تجربة منشئ نص الدعاء وأسرار تأثيره:

إن فهم تجربة منشئ نص الدعاء الذي هو سلاح يواجه به الإنسان هواجس نفسه وتطلعاتها ورغباتها ونفورها وجموحها، والوقوف على جماليات نثره يكشف لنا أسرار تأثير نص الدعاء، فالمفردات لها حركة حسية في النص، ولها جذوة لا تخبو تكمن بين الصوت والصوت الآخر، والكلمة والكلمة الأخرى، ويتجلى ذلك واضحا إذا كان منشئ النص عارفا بحقيقة هذه الروح وما يصلحها، فيحتاج كي يترجم هذه الحقيقة إلى عبارات صحيحة وألفاظ دقيقة ومعانٍ واضحة.

إن اختيار الألفاظ والقدرة الفنية في صياغة اللغة تُنتج معاني سامية تداعب الروح لاسيّما في حالة الدعاء، فتمثل حقائق راسخة بأساليب بلاغية راقية.

إنّ الداعي ينقل مشاعره وأحاسيسه بروح تملأ ألفاظه فيشاركه المتلقي في تلمس كناياته واستعاراته ومجازاته فينعكس ذلك على روحه.

لنقف هنا على تجربة عملية في نص يناجي فيه سبط رسول الله (ص) الحسين بن علي (رض) ربّه في يوم عرفة اقتطعنا منه قوله: "... وأنا أشهد يا إلهي بحقيقة إيماني، وعقد عزمات يقيني، وخالص صريح توحيدي، وباطن مكنون ضميري، وعلائق مجاري نور بصري، وأسارير صفحة جبيني، وخرّق مسارب نفسي، وخذاريف مارن عرنيني، ومسارب سماخ سمعي، وما ضمّت وأطبقت عليه شفتاي وحركات لفظ لساني، ومغرز حنك فمي وفكي، ومنابت أضراسي، ومساغ مطعمي ومشربي، وحمالة أم رأسي، وبلوغ بارع حبائل عنقي، وما اشتمل عليه تامور صدري، وحمائل حبل وتيني، ونياط حجاب قلبي، وأفلاذ حواشي كبدي، وما حوته شراسيف أضلاعي وحقاق مفاصلي، وأطراف أناملي، وقبض عواملي، ولحمي ودمي وشعري وبشري وعصبي وقصبي وعظامي ومخي وعروقي وجميع جوارحي، وما انتسج على ذلك أيام رضاعي، وما أقلّت الأرض منّي، ونومي ويقظتي وسكوني وحركات ركوعي وسجودي، أن لو حاولت واجتهدت مدى الأعصار والأحقاب لو عمرتها أن أؤدي شكر واحدة من أنعمك ما استطعت ذلك إلا بمنّك الموجب عليّ به شكرك أبدا جديدا وثناء طارفا عتيدا..."١٤.

- مجاري نور بصري: مسارات بصري إلى مركز الإبصار في المخ.
- أسارير: خطوط.
- صفحة الشيء: وجهه.
- خرّق: الثُقب والمنفذ.
- مسارب: مخارج.
- خذاريف: جمع خذروف، وهو العود أو القصبة.
- مارن: ما لان من الأنف وزاد عن القصبة.

- عرنين: أول الأنف حيث يكون فيه الشمّ.
- صماخ: قناة الأذن التي تفضي إلى الطبلة.
- المغرس: موضع تثبيت الشجر ونحوه في الأرض.
- الحنك: ما تحت الذقن.
- الفك: مغرس الأسنان.
- المساغي: مجرى الطعام والشراب من الحلقوم مرورا بالمريء.
- الحمالة: ما يتكفل بحمل الشيء.
- أم الشيء: أصله، والمقصود المنطقة التي تتكفل بحمل أصل رأسي من أعصاب وأوردة وشرايين وغيرها.
- تامور: القلب أو غلافه.
- الوتين: الشريان الرئيسي الذي إذا انقطع مات صاحبه.
- أفلاذ: جمع (فلذة) وهي القطعة من الكبد واللحم.
- حواشي: جمع (حاشية) وهي الطرف أو الجانب من كل شيء.
- شراسيف: جمع (شرْسف) وهو الطرف اللين من الضلع مما يلي البطن.
- حقاق: جمع (حِق)، وهو ما كان من الإبل ابن ثلاث سنين ودخل في الرابعة.
- قبض عواملي: المنطقة التي لا تظهر عندما يقبض الإنسان أصابعه.
- القصب: شُعب الرئة.

إنّ اللغة في هذا الجزء من الدعاء تولّد رغبة ملحة شديدة في الحاجة إلى ما عند الله باللجوء إليه، وتترجم عمق الصلة بالله، وتعكس مدى الافتقار والحاجة والعجز المتجذر في النفس، كل ذلك عن أداء شكر واحدة من نعم الله علينا.

كان بإمكان المنشئ لهذا الدعاء أن يقرر حقيقة العجز عن عدّ نعم الله وإحصائها وكفى، فهو قد قال قبل ذلك:" فأيّ نعمك يا إلهي أحصي عددا وذكرا، أم أيّ عطاياك أقوم بها شكرا؟! وهي يا رب أكثر من أن يحصيها العادون أو يبلغ علما بها الحافظون"، ولكنه فصّل في بيان يأسر النفوس ويأخذ بالأرواح في ذكر كل مفاصل جسم الإنسان الظاهرة والباطنة المادية والمعنوية لتقر بالعجز عن أداء الشكر. إنّ هذه السجعات في نهاية الجمل، والمباني الصرفية والتراكيب النحوية، والاستعارات والمجازات البلاغية قد اجتمعت وتضافرت لتنفذ بدلالتها في عمق الروح فيؤثر الدعاء بشكل عجيب في المتلقي.

لو كان هذا التعداد بشكل اعتيادي رتيب لم يُكس بهذه الحلل من حيث اختيار الألفاظ وصياغة وتركيب الجمل، وتنسيقها فإننا لن نستشعر ذلك الأثر الروحي الذي نشعر به ونحن نقرأ أو نسمع هذا الإنشاء البليغ. لقد ظهر في هذا النص من الدعاء حالة من حالات الإعراب قد طغت في معظم فقراته ومفاصله، وهي حالة الجر إذ كثر العطف على المجرور وكثر التركيب الإضافي في جمله، فهل لذلك علاقة بالمعنى المؤثر على الروح ؟!

إنّ حالة الجر والإضافة تظهر بحالة الكسر الذي يتحلى به جسد اللفظ، وهذا إيحاء بحالة الانكسار والخضوع والتذلل والعجز وعدم القدرة على الشيء، فالمجرور محتاج للجار ومرتبط به لا ينفك عنه، والمضاف مرتبط بالمضاف إليه لا يظهر مدلوله وحسنه إلا بالمضاف إليه، وهي حالة تتوافق مع روح الداعي والمتلقي؛ إذ إنه يعيش –وهو يناجي ربه– حالة الانكسار والخضوع والعجز أمام خالقه فيُظهر أنه لا يستطيع أن يوظف تلك القدرات التي وهبها الله إياه مجتمعةً في تأدية شكر واحدة من نعمه سبحانه.

إنّ الذي جعلنا نستشعر هذه الحالة هو اللغة التي صيغت بها هذه المعاني، فالخطوط المتوازية والحقول المتساوية والأنساق المتلاقية في هذا النص تنجذب لها الروح وتتلاقى فيها المشاعر، فحين نتأمل قوله:" عقد عزمات يقيني، وخالص صريح توحيدي، وباطن مكنون ضميري" نجد الإبداع في الرصف والتركيب فهنا اسم مضاف إلى اسم آخر، وهذا الآخر مضاف إلى ثالث، وهذا الثالث مضاف إلى ياء المتكلم الذي نجد له حضورا كثيرا في مفاصل هذا النص، فعندما تنتهي الإضافات إلى ياء المتكلم تكون المعاني قد لامست الروح والمشاعر فتلتصق هذه الأشياء والأجزاء التي هي في بدن الإنسان بروحه، نحو (ضميري، بصري، جبيني، نفسي، عرنيني، سمعي، شفتاي، لساني، فكي..). إنّ الألفاظ المضافة إلى الحواس والجوارح لها إيحاؤها الروحي الخاص، فحين يقول:" نور بصري" أو " مارن عرنيني" أو "سماخ سمعي" أو "لفظ لساني"، نجد أن لهذه الألفاظ دلالة روحية أخرى لا نجدها حين نلفظها لوحدها أو في غير نص الدعاء؛لأنها في هذا السياق المتناسق مع معاني النص وموقف الدعاء، والاعتراف بحالة العجز والتقصير عن أداء الشكر يكون لها وقع في المعنى أرفع وأشرف وأدل. ثم إن هناك ما يلفت النظر في ألفاظ هذا النص ويسترعي الانتباه، وهو كثرة صيغ جمع التكسير إذ جاء منها أربعة وعشرون جمعا من جموع التكسير، وفي أغلبها جاء على صيغ منتهى الجموع، وهذا يدعونا إلى التأمل والبحث عن علّة

لتضافر هذه الجموع بهذه الصيغ !.

إن السعة والتوسع في أبنية جموع التكسير هي ظاهرة تمتاز بها لغتنا الجميلة، فتتعدد أبنية هذا النوع من الجموع لأسباب كثيرة وقف عليها أهل اللغة١٥، ومنها المزاوجة والإتباع نحو قوله في النص المتقدم:"وحِقاق مفاصلي، وأطراف أناملي، وقبض عواملي "فالجموع (مفاصلي، أناملي، عواملي)كلها جاءت على صيغ منتهى الجموع (مفاعل، أفاعل، فواعل)، ولهذا التتابع في الصيغ أثر في الإيقاع والانسجام اللفظي الذي ينسحب على المعنى، وبما أن الدعاء هو في سياق تعداد أعضاء جسم الإنسان وجوارحه وعجزها عن أداء الشكر ناسب أن يحشد المنشئ للنص الصيغ التي تدل على الكثرة؛إذ إن الغرض هو بيان عدم إمكانية أداء حق الشكر لله تعالى مهما اجتهدت الأعضاء والجوارح في عدّها؛ولذا جاءت صيغ منتهى الجموع لتتجلى هذه الحالة وانعكاساتها على الروح.

إنّ كل هذه الأدوات والأساليب والصيغ التي اجتمعت في هذا الدعاء، وهذا التأثير الفريد من نوعه، وانجذاب الإنسان بروحه وتفاعله بإحساسه ومشاعره يقودنا إلى الاعتراف بحقيقة أن أغلب الناس غير قادر على إنشاء الأدعية ذات النفس الطويل؛إذ يميلون بطبعهم إلى النتاج الكامل المتوافر بين أيديهم لاسيّما إذا كان ذلك النتاج على قدر رفيع من الصياغة والبلاغة المؤثرة في النفوس.

لغة الدعاء بين الدلالة التصورية والدلالة التصديقية :

إنّ للألفاظ في اللغة العربية مدلولين: تصوري وتصديقي، بمعنى أن اللغة في الوضع تحمل الدلالة التصورية، فعندما أقول:(القلب) فإن الذهن ينصرف مباشرة في أول الأمر إلى ذلك العضو المحسوس الذي هو في جسم الإنسان في جانبه الأيسر من الصدر، ودلالة أخرى تصديقية وهي تحكي حال المتكلم، أي بدلالة اللفظ على مدلوله النفسي التصديقي إذ إن اللفظ يكشف عن إرادة المتكلم.

والدلالة التصورية لا تنفك عن اللفظ الموضوع لها؛لأنها ارتبطت به في أساس الوضع، فقولنا: (الحق منتصر) حين يصدر من متحدث واعٍ أو نائم ليس في وعيه، أو من أي مصدرٍ آخر فإنها تصور لنا معنى الحق فنستحضره في الذهن، وتصور لنا معنى النصر فنستحضره في الذهن فهي تصورات مجردة. أما إذا صدرت الجملة من متحدث واعٍ له إرادته فإن الدلالة تتعدى حالة التصورِ إلى حالة التصديق فتكشف الجملة عن أشياء نفسية عند المتكلم إذ تكون له إرادة استعمالية في نفسه من وراء هذه الجملة، فهو يريد أن يثبت الخبر للمبتدأ ونتصور معاني الجملة في الواقع١٦، ولهذا فإن الدلالة التصديقية لها وجهان:

الأول: إرادة استعمالية من خلالها نعرف أن صدور الجملة من المتكلم يريد منها أن نتصور المعاني.

الثاني: إرادة جدّية وهي الغرض الأساس الذي من أجله أراد المتكلم أن نتصور تلك المعاني.

وأحيانا تتجرد الجملة عن الوجه الثاني (الإرادة الجدية) إذا صدرت في حالة الهزل أو لم يكن يهدف المتكلم منها إلا مجرد إيجاد تصورات في ذهن السامع لمعاني الكلمات؛ولذا فإن الدلالة التصديقية لاسيّما في وجهها الثاني ليست لغوية، بمعنى أنها لا تعبر عن علاقة ناشئة عن الوضع بين اللفظ والمدلول التصديقي؛لأن الوضع إنما يوجد علاقة بين تصور اللفظ وتصور المعنى لا بين اللفظ والمدلول التصديقي.

إنّ الدعاء هو حالة عروج إلى الله وخطاب مع الرحمة المطلقة، وتصاغر وذل في النفس، فالصور التي تظهر لنا في فقرات الدعاء السابق تبرز فيها إرادة المتكلم الحقيقية، والتي هي في مدلولها التصديقي لا في مدلولها اللغوي، فحين يُقر ويقول: " وأنا أشهد يا إلهي بحقيقة إيماني، وعقد عزمات يقيني، وخالص صريح توحيدي، وباطن مكنون ضميري، وعلائق مجاري نور بصري، وأسارير صفحة جبيني..." حين يُقر بذلك في تسلسل هذه الجمل وتناغمها فإننا نعيش الدلالة التصديقية للألفاظ في إرادة المتكلم الجدّية الواعية.

إنّ معنى كلمة (الحقيقة) و(اليقين) وكلمة (صريح) و(باطن) و(مكنون) و(ضمير) و(علائق) في هذا السياق لا تقف عند تصور المعنى وحضوره في الذهن فحسب بل إنها تجعل المتلقي في حالة من التصديق؛ إذ إن حضور معاني هذه الألفاظ في النفس هو حضور واعٍ، ونقصد بذلك هو التفاعل النفسي الذي يخلق من اللفظ أثرا روحيا في سياق الدعاء وحالة المناجاة.

إنّ تتابع ألفاظ ثلاثة يضاف بعضها إلى بعض في تناغم سلسل وانسجام في المعنى ليُؤكد لنا هذه الحقيقة وهي أن

الألفاظ في الدعاء يُراد منها دلالتها التصديقية لا اللغوية، ومثال على ذلك هذه الجملة من الفقرات السابقة (وعقد عزمات يقيني) فلنتصور معنى العقد والعزم واليقين، فالعزم يحتاج إلى عقد واليقين يحتاج إلى عزم، والمتكلم يحتاج إلى اليقين.إنّ دلالة هذه الألفاظ في هذا السياق يحتاج إلى إرادة حقيقية من المنشئ وهي حالة التصديق والحضور الفعلي لمعاني الألفاظ.

كلمة أخيرة:

إنّ مجال الدعاء رحب فسيح، وتربة خصبة لإنتاج دراسات لغوية أدبية تتجلى فيها أصالة اللغة وعمق دلالتها؛لأن الدعاء تكون فيه العاطفة صادقة لا تعرف التلوين والمراوغة، فالدعاء حديث بين العبد وربه تكون فيه اللغة في أجلى صورها وتأثيرها، ولقد حاولنا أن نقف- في هذه الدراسة الموجزة- على بعض خصائص اللغة في نص الدعاء وتأثيرها الروحي من خلال الألفاظ وبعض أنماط التركيب، فظهر لنا أن اللغة العربية لها من الخصائص في نصوص الدعاء ما لا تملكه أي لغة أخرى. ويبقى المجال مفتوحا أمام دراسات كثيرة تتناول نصوص الأدعية الرفيعة ذات المضامين العالية، والتي تتسم بالبلاغة وفن الصياغة، فإذا ما تم ذلك فإننا سنقف على كنوز ثمينة تضاف إلى كنوز لغتنا الحبيبة.

وأخيرا أقول: إن دراسة اللغة وخصائصها وجمالها في نصوص الأدعية أولى من نصوص أخرى سواء في الشعر أو النثر؛لأننا سنجد في الدعاء ما لا نجده في الشعر أو فنون النثر الأخرى.

مصادر البحث

١- الاتساع في المعنى، د. مقبول علي النعمة، عالم الكتب الحديث، ١٤٣٢هـ.

٢- إقبال الأعمال، رضي الدين أبو القاسم علي بن طاووس، تعليق:حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤١٧هـ، ط١.

٣- تفسير الكشاف، الزمخشري، تعليق:خليل مأمون، دار المعرفة، بيروت، ١٤٣٠هـ، ط٣.

٤- دروس في علم الأصول، السيد محمد باقر الصدر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢

٥- دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٦- الصحيفة السجادية، تقديم:محمد باقر الصدر، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٢٢هـ، ط٢.

٧- علم الأصوات، د.كمال بشر، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٨- الكينونة والزمن، مارتن هينقر، ترجمة:فتحي المسكيني، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠١٢م.

٩- لسان العرب، مكتب تحقيق التراث، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٣هـ، ط٣.

١٠- اللغة، جوزيف فندريس، ترجمة:عبدالحميدالدواخلي، محمد القصاص، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٤م.

١١- مجلة الدراسات اللغوية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، الرياض، مج(٨)، عدد(٢)، ٢٠٠٦م.

١٢- المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، عبدالعزيز حمودة، عالم المعرفة، ١٩٩٨م، الكويت.

١٣- معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٤م.

١٤- مقال بعنوان: اللغة /الكلمة من منظور الأدب الإسلامي، مصطفى بن عمرو، شبكة الألوكة، ٢٠١٥م.

الهوامش

١- المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، عبدالعزيز حمودة، عالم المعرفة، ١٩٩٨م، الكويت، ص٢١٦.

٢- انظر: الكينونة والزمن، مارتن هينقر، ترجمة:فتحي المسكيني، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠١٢م، ص٣١١- ٣١٣.

٣- انظر: مقال بعنوان: اللغة /الكلمة من منظور الأدب الإسلامي، مصطفى بن عمرو، شبكة الألوكة، ٢٠١٥م، ص٢- ٣.

٤- انظر: تفسير الكشاف، الزمخشري، تعليق:خليل مأمون، دار المعرفة، بيروت، ط٣، ١٤٣٠هـ، ص٥٥١.

٥- انظر: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص٢٦٢.

٦- انظر: الاتساع في المعنى، د. مقبول علي النعمة، عالم الكتب الحديث، ١٤٣٢هـ، ص ٨٤.

٧- انظر:اللغة، جوزيف فندريس، ترجمة:عبدالحميدالدواخلي، محمد القصاص، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٤م، ص ١٠٤

٨- انظر: الاتساع في المعنى، ص ٨٦.

٩- الصحيفة السجادية، تقديم:محمد باقر الصدر، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٢٢هـ، ط٢، ص٢٩٣.

١٠- انظر: علم الأصوات، د.كمال بشر، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٠م،، ص١٠١- ١٠٣وص ٣٩٦.

١١- انظر:لسان العرب، مكتب تحقيق التراث، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٣هـ، ط٣، مادة (دبر).

١٢- انظر: المصدر السابق، مادة (خشع).

١٣- انظر: معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٤م، ص٨٧.

١٤- إقبال الأعمال، رضي الدين أبو القاسم علي بن طاووس، تعليق:حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤١٧هـ، ط١، ص٦٥٣.

١٥- انظر:مجلة الدراسات اللغوية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، الرياض، مج(٨)، عدد(٢)، ٢٠٠٦م، ص١٢٩- ١٣٠.

١٦- انظر:دروس في علم الأصول، السيد محمد باقر الصدر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ج١، ص٧٥- ٧٦.